د. خيرالدين دعيش

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي
جامعة سطيف 2

مقياس نظرية الأدب للسنة الثانية ليسانس

المحاضرة : نظرية التعبير (1) .

ب-نظرية التعبير:

ظلت نظرية المحاكاة مسيطرة على الحركة الأدبية والنقدية الأوروبية حتى أواسط القرن الثامن عشر تقريبا، وفي هذه الفترة شهد المجتمع الأوروبي تغيرات جذرية هزت ابنيته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية، فقد استطاعت الثورة البرجوازية على الاقطاع أن تنقل البشرية جميعها من عصر إلى عصر إذ ولدت قيما ومفاهيم جديدة على كافة الأصعدة والمستويات، يومكن تلخيص هذه التغيرات التي كان لها تأثير في تاريخ الأدب والنقد بما يلي:

هيمنت فئات اجتماعية جديدة على جميع مناحي الحياة سميت بطبقة البرجوازية استطاعت أن تقوم بنهضة صناعية واقتصادية استلزمت بدورها قيام نهضة فكرية وعلمية واجتماعية وثقافية، وشهد المجتمع انتقالا من اريف إلى المدن وأصبحت المدن تكتظ بالتجمعات البشرية مما ولد علاقات اجتماعية كثيفة ومعقدة ومستقرة، وتطورت الدراسات الاجتماعية والاقتصادية وظهرت فلسفات جديدة وأدب وفن جديد، ونمت الروح الفردية والروح الديمقراطية، إذ كان شعار الثورة (الاخاء-المساواة-الحرية)، وجاء التقدم العلمي والصناعي ليضفي على مفهوم الفردية معان جديدة تماما، وظهرت المطبعة والصحف والكتب والمكتبات، كما انتشر التعليم فازدادت قاعدة القراء واتسعت وأصبحت

الحياة اليومية أكثر تنظيما مما أوجد وقت فراغ كان على الناس أن يقوموا بتمضيته بالقراءة.

وقد انعكست كل هذه التغيرات على الحياة الداخلية للإنسان على عقلة وفكره وأحاسيسه ومشاعره وظهر أدب جديد وموضوعات جديدة وثار الشعراء والأدباء على الزخرفة اللفظية والقواعد والقوانين الكلاسيكية، كل هذا أدى إلى ظهور نظرية جديدة في الأدب هي نظرية (التعبير) التي جاءت انسحابا ونتاجا لتلك التغيرات الجذرية وقد ارتبطت بالبرجوازية وعبرت عن قيمها وطموحاتها في فترة صعودها.

1-أسسها الفلسفية والفكرية:

تمحورت التغيرات الجذرية السابقة حول الفرد والايمان بالفردية، ولم تقتصر شعارات الثورة في الحرية والديمقراطية على مجال دون آخر، فعلى صعيد الاقتصاد رفعت البرجوازية شعارها المعروف (دعه يعمل - دعه يمر)، وعلى الصعيد الأدبي وجد شعار آخر يوازيه هو (دعه يعبر عن ذاته)، لقد أصبح الفرد والفردية حجر الزاوية في المجتمع البرجوازي الجديد ولا شك أن هناك فردية في المجتمع الاقطاعي لكن الفارق الجوهري هو أن الفردية في المجتمع الاقطاعي مستمرة من الملكية والجاه والعائلة والحسب والنسب، ودون توافر هذه الشروط لا يعترف بالفرد مهما بلغ من قوة جسدية أو عقلية، لذلك فإن الفردية والاحساس بها في عصر الاقطاع مندمجة بالعائلة والحسب والنسب، لهذا يقال بأن المجتمع الاقطاعي مجتمع محافظ يخرص على ضبط العواطف والانفعالات والاحتكام إلى العقل فيقال إن المجتمع الاقطاعي يلغي ذاتية الأفراد.

أما في المجتمع البرجوازي الجديد فإن للفرد كامل الحرية في التعبير عن آرائه وأفكاره وميوله وعواطفه ومشاعره بغض النظر عن انتمائه العائلي، فالإنسان يعرف مع هذا المجتمع بأنه الانسان دون انتمائه الاجتماعي، هذه المفاهيم الجديدة ساهمت في تحرير الفرد من سلطة الاقطاع، فالفرد عالم قائم بذاته أو دنيا، وجوهره الأصيل الحرية الشعور الوجدان والعاطفة، وكما أن للمجتمع حقوقا فإن للفرد حقوقا أيضا.

والفلسفة التي ظهرت في هذه الفترة هي الفلسفة المثالية الذاتية، التي رفضت الآلية وقالت بالديناميكية إذ ترى أن الوجود الأولي للذات وللوعي الإنساني، أما العالم الموضوعي فمن خلق هذه الذات، لأن وجوده متوقف على إدراك مدرك له، وما دامت الذات متغيرة فإن كلا منها يخلق العالم على صورة خاصة، وهذا يعني أن الذاتي يخلق الموضوعي، وان العالم الداخلي للذات العارفة هو أساس صورة العالم الخارجي لديها، لذلك فإن الشعور والوجدان والعاطفة يجب ان يتقدم كل منها على التجربة والخبرة، والفن في هذا السياق تعبير عن الصورة الخاصة للعالم، وهي الصورة التي خلقتها الذات معتمدة الشعور والوعي العاطفي، وكمال التعبير هنا هو قدرة الفن على تصوير خلق الذات لعالمها الخاص.

ويعدّ (كانط 1724) (هيغل 1770) المنظرين الفلسفيين للبرجوازية الفردية، والمؤثرين الحقيقيين في النقاد والأدباء الذين ظهروا في هذه الفترة، وهما بذلك واضعا الأسس الفلسفية لنظرية التعبير، وقد فصل كانط بين المعرفة الحسية والمعرفة العقلية كما اعتبر الشعور طريق المعرفة الحقيقية.

أما هيغل فقد رأى أن مصدر الفن هو الخبرة الخاصة وأن ماهية الفن أنه مظهر حسي لتجسيد الحقيقة، ومهمته أرفع صور التعبير عن الحقيقة، ويضع هيغل الابداع أساسا لفلسفة الفن، أي إنه يفسر الفن من زاوية المبدع الفنان الذي يوظف خياله في إدراكه الحقيقة، ذلك ان الحقيقة هي صورة يخلقها الفنان لا لموضوع أو فكرة معطاة، ويصبح الفن بهذا الشكل إدراكا خالصا للحقيقة، هكذا نرى أن الفيلسوفين يهتمان أساسا بالشاعر والخيال، فكانط يرى أن طريق المعرفة الحقيقية هو الشعور وهيغل يرى ان الفن إدراك خاص للحقيقة وأن أداة الادراك الخيال، وقد استندت نظرية التعبير على هذه الفلسفة وتمثلت خطوطها العامة بما يلي:

1-الأدب تعبير عن الذات أي تعبير عن العواطف والمشاعر والأدب علم المشاعر والأحاسيس والقلب هو ضوء الحقيقة لا العقل أما مهمة الأدب فتمثل في إثارة الانفعالات والعواطف.

2-اهتمت نظرية التعبير بالأديب والشاعر أكثر من الأسلوب أو الشكل

فالشخصية أهم من الحبكة أو الأحداث، ورأت بأن الأديب يعيد خلق الحياة من خلال رؤيته الخاصة، وقد اهتم أصحاب هذه النظرية بتأكيد الحقيقة القائلة بأن الانسان خير بطبعه، كما اهتما ببيان قيمة الطبيعة إلى حد التقديس، فكولريدج يعتبرها أعظم الشعراء جميعا، ووردزورث يرى أنها ببساطتها الأقد على الوحي من أي شيء آخر تختلط فيه المؤثرات وتتشابك، لذا يمكن أن نقف عند علمين من أعلام نظرية التعبير هما (وليم وردزورث) و (تيلور كولريدج) الذين اثرا بكتابتهما تأثيرا كبيرا في مسار الأدب والنقد الأوروبي والعالمي.